ثغور على الخريطة اللغوية العربية

الدكتور شكري فيصل

البحث في حاضر اللغة العربية أو في ماضيها أو في مستقبلها بحث متكامل الجوانب :

إن اهتمامنا بالماضي منها هو نوع من المعرفة ومن الإحياء ومن رعاية الجذور والاهتمام بها حتى تظل طريقاً إلى النمو ، ومن تتبع السيرة ومن مراقبة التطور .

وان اهتمامنا بحاضرها هو اهتمام بالواقع الذي نحيا فيه ، ومعاناة كاملة لأشيائه ، وتمرّس بالاسماء والمسميات ، ونهوض بالأمانة الصعبة التي ألقت بها الأقدار على هذا الجيل منذ دفعت به إلى صميم الحضارة المعاصرة دون مشاركة منه فيها .

وإن اهتمامنا بمستقبلها هو استكمال لهذا الاهتمام بالماضي والحاضر ، لأن ايماننا بمستقبلها هو جزء من عقيدتنا ، ولعله أن يكون أصل الاجزاء ، فلغتنا يجب أن تستوعب هذين الجانبين الرئيسيين من حياتنا : حياتنا الاجتماعية من طرف ، وافكارنا ومثلنا وتطلعاتنا وتنظيم هذه الأفكار وصياغة هذه التطلعات وتحقيق هذه المثل من طرف آخر .

ولهذا يبدو الحديث عن جانب ما من ماضي هذه اللغة أو حاضرها أو مستقبلها حديثاً متكاملاً يقود بعضه إلى بعض ، بل لعلّه يقود الى شيء كثير من تداخل . ان الجذر الضارب في أعماق الأرض ليس بعيداً عن الثمرة التي تتدلى من الغصن ، والفرع المنبثق عن الساق هو ساق أخرى ، وبين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها مثل مابين الجذر وبين الثمرة من صلات القربى والنسب .

* * *

كنت أتمثل هذا كله وأنا أفكر في خريطة اللغة العربية المعاصرة ... في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

امتدادها وفي عواتق هذا الامتداد ، في مكانها من الألسنة وفي مكانها من الاقلام ، في انتشارها لغة أداء يومي أو أداة تواصل فكري .. في وجودها في بعض الاقطار لغة وفي أقطار أخرى حروف كتابة .. في مستقبلها مزدهراً وفي مستقبلها مهدداً ، في الآفاق التي كانت لها وفي الآفاق التي يراد أن تحبس فيها وفي الآفاق التي تتطلع اليها .

ومن الواضح أن هنالك في الاصل هذا التوازي ـ أو مايشبه أن يكون توازياً ـ بين انتشار الاسلام وبين انتشار اللغة العربية ، فقد ارتبط مابينهما منذ أراد الله تعالى أن تكون العربية هي لغة هذا الكتاب الكريم المنزل وهذه الدعوة النقية الجديدة .

غير أن هذا الأصل لم يتحقق دائماً على النحو الأمثل : فقد انتشر الإسلام وانتشرت العربية في مناطق ، وانتشر الإسلام ولم تنتشر اللغة وانما انتشر الحرف العربي في مناطق اخرى ، وانتشر الإسلام وانتشرت ثقافته في مناطق ثالثة من غير أن يصاحب ذلك وجود اللغة العربية على الألسنة أو وجود الحرف العربي على الأقلام .. هذا على شيء من تداخل في هذا التقسيم : بعضه تداخل زماني وبعضه تداخل مكاني ، لابد معه من تسامح .

ومن هنا لاتتخذ الخريطة العربية اللغوية لوناً واحداً .. انه لون واضح فاقع في البلاد التي تعتبر اللغة العربية لغة رسمية ، وهو لون دون ذلك وضوحاً في البلاد الاسلامية التي احتفظت بلغتها القومية غير أنها كتبتها بالحرف العربي .. ثم هو لون متقطع ، أشبه مايكون بعروق الذهب الضاربة في طبقات الأرض ، في البلاد التي انتشر فيها الاسلام وكوّن المسلمون فيها هذه الكثرة أو هذه القلة دون أن يكون هنالك التزام باللغة العربية المكتوبة أو المنطوقة . ان اللغة العربية في مثل هذه الاقطار ، في بعض أقطار افريقية أو آسيوية ، تستحيل الى أحد شيئين ـ أو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليها معاً : إما أن تستحيل ثقافة اسلامية فيها من العربية رموزها ومصطلحاتها وأطراف من الفاظها وتعابيرها وصيغها ، وإما أن تستحيل لغة متداخلة مع اللغة المحلية متفشية في كثير من الفاظها كما في السواحلية ،ولكنه نوع من التفشي الذي يأتي أثراً آثار التفاعل لامن آثار الغلبة .

وفي هذا البحث القصير لا أنوي أن أتحدث عن هذه كلها ، وإنما أحب أن أتحدث عن الخريطة اللغوية فيما نصطلح على تسميته الآن بالوطن العربي ؛ وإنْ يكن الوطن العربي — والعروبة نسب فكري ولحمة ذهنية وولاء نفسي — أبعد آماداً من هذه الحدود التي يحاط بها .

* * *

في هذا الوطن العربي نواجه دائماً هذا النص الدستوري النظري على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية .غير أننا نواجه كذلك غالباً هذا القصور عن تحقيق هذا النص . وهو قصور ينتشر على درجات متتالية تبدأ من غياب اللغة العربية في الدوائر الرسمية غياباً واضحاً — باستثناء بعض الأوراق أو الشعارات — وتتدرج حتى تنتهي بمزاحمة اللغة الأجنبية لها في بعض حلقات التدريس أو في بعض فروعه .

وليس من شك في أن الحقبة الاستعمارية تركت ظلالاً كثيفة على سيادة اللغة العربية ، فابتعدت بها عن الحياة الادارية والحياة العلمية على السواء ، وتركت لها — مكرهةً — هذا الحيّز الضيق على الألسنة في أمور الحياة اليومية التي لاتثير فكراً ولا تبعث على تأمل . فلما جاءت عهود الاستقلال كان لا بد للأصالة اللغوية من أن تجد سبيلها الى أن تكون لها الغلبة على كل الاعتبارات الأخرى .

* * *

إن الخريطة اللغوية التي تمتد بين الخليج والمحيط لا تبدو نقية دائماً . إن جملة من الثغرات توسم على خطوطها هنا وهناك ،وتتيح للرياح الجليدية الباردة أن تغطي الأفق اللغوي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الممكن أن نلاحظ أن هذه الثغرات تتشعب في نوعين كبيرين :

ثغرات ترتد الى الماضي ، والمسؤولية فيها مسؤولية عهود الاستعمار الظالمة .

وثغرات ترتد الى الحاضر ، والمسؤولية فيها تعود الى الانحراف الذي يصيبنا ، أفراداً أحياناً ، وجماعات حيناً آخر .

* * *

النوع الأول من هذه الثغرات يتلامح في الأقطـــار التي كانت تعاني أهوال الاحتلال الفرنسي في أقطار شمالي إفريقية : المغرب والجزائر وتونس ؛ على الخلاف الكبير بين هذه الأقطار في النظر الى المشكلة اللغوية :

فعلى حين تغيم الأصوات العربية الصافية في المغرب وتقوم الدعوة الى الثنائية اللغوية مؤيدة بطائفة من القوى ، يبدو الوضع في الجزائر أشد ما يكون إشراقاً وأملاً ، وتؤذن الخطوات الواقعية المدروسة بتغيّر كبير في الميزان اللغوي ، بينما يبدو الأمر في تونس متأرجحاً : الكثرة الكاثرة التي كابدت الاستعمار استعصمت بلسانها بفضل خريجي الزيتونة والصادقية ؛ ولكن جيلاً جديداً ثنائي اللغة ، في نطاق المعاهد والجامعات ، يوشك أن يمدّ سلطانه على الإدارات والمؤسسات .

ومن هنا تأخذ التجربة الجزائرية في تأصيل العربية قيمتها : إنها ليست استعادة للوجود السليم ، وليست نقضاً لما أقامه الاستعمار والتبشير خلال قرن وربع القرن ، وليست مقاومة متزنة وعنيدة لضغوط من كل جانب .. ليست هذا كله فحسب ، وإنما هي التجربة الرائدة التي سيكون من آثارهـــا أن تصحح الموقف اللغوي في في القطرين الشقيقين المتجاورين : الموقف الذي يدعو الى الثنائية ويؤيدها في المغرب ، والموقف المتأرجح الصامت في تونس . إن نجاح التجربة في الجزائر يطرد الشكوك التي تساور بعض النفوس ، ويسد الثغرات المفتوحة على العربية ، ويشق أمامهـا الطريق لتكون اللغـة اليومية والعلميـة والتعليمية والإدارية على طول الشمال الإفريقي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن ماذا عن موقفنا من هذه التجربة ؟ هل نقف ننظر فيها وننتظر نتائجها ، وانعكاس هذه النتائج على ما حولها من يمين ويسار وعلى ما وراءها من هذه الأقطار التي تؤلف الصحراء حوضها المشترك ؟

تلك قضية أخرى ليس هذا مكانها ولكننا مع ذلك لا نملك أن نغضي عن أمر أساسي نخشى عدواه من المغرب الى المشرق ، وبخاصة حين نرى هؤلاء الذين يهيئون لهذه العدوى وييسرون سبيلها .

ذلك أن المنطلق النظري للواقع اللغوي الذي يعانيه المغرب يبدأ من هذه الدعوة الى الثنائية ، وهي دعوة تريد تزويد الإنسان في الشمال الإفريقي باللغتين معاً .

والحق أنه ما من كلمة أخرى كهذه الكلمة يتداخل فيها الحق والباطل ، فالمسلمات النفسية والتربوية والاجتماعية كلها تقف نقيضاً لهذه الدعوى ودليلاً على استحالتها . وإذا كان هنالك نماذج فردية نادرة استطاعت أو تستطيع أن تحقق هذا الميْز في ظروف معينة لا تتكرر أو يصعب تكرارها ، فإن إقامة كيان اجتماعي وسياسي ، وفيٍ لواقعه ، حريص على ضمان مستقبله الذاتي ، لا يتأتى بحال مع هذه الثنائية النظرية ولا يمكن أن يكون جزءاً منها ولا عوناً عليها .

وفي مثل الظروف الاجتماعية لأقطارٍ من أقطار المغرب العربي — وأنا أتحدث بعد معاناة لهذه الظروف وعيش فيها واستبطان لأعماقها وإدراك لطبيعتها التاريخية — يبدو أنه ليس هنالك إلا اختيار واحد : إما الوجود الأصيل ، وإما الثنائية اللغوية . . انهما خطان لا يتوازيان ، بل إنهما قضيتان متعارضتان .

ذلك أن ثنائية اللغة في الظروف الراهنة التي يسترد فيها الشمال الإفريقي شخصيته لا تعني شيئاً آخر إلا غياب اللغة العربية مرة أخرى . ولكن غيابها في هذه المرة يأتي عن طواعية منا لا عن إكراه من غيرنا . وإلا فماذا يبقى للعربية — مهما يكن من عراقتها الحضارية — حين نضعها في سباق مع لغة أخرى في تيار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحياة الحاضرة بعلومها وتقنياتها ؟ وكيف نتصور هذه الثنائية التي لا تكافؤ فيها بين اللغة العربية وهي تستأنف طريقها ، وبين لغة ذات سلطان وقواعد وطرق متفتحات .

إن الخطر الذي يتهدد العربية في الشمال الإفريقي لا يأتي من بطء حركة التعريب ، ولا من وطأة آثار الاستعمار القديم ، ولكنه يأتي من هذه الدعوة الى ثنائية اللغة . وان استمرار الحاجة الى اللغة الأجنبية في مرحلة انتقالية ، مهما يكن من طولها ، لا ينهض مسوّغاً لهذه الدعوة ، فهذه الدعوة شيء والصلة المتصلة باللغات الأجنبية شيء آخر .

إن حركة التطور الطبيعي السليم تمضي مع العربية ولمصلحتها . ولذلك فنحن لا نخشى بطء هذا التطور : غير أن الذي نخشاه أن يدخل هذا التطور الطبيعي قوى أخرى — لعلها أن تكون القوى القديمة — وأفكار عتيقة في ثوب جديد ، من مثل الاحتماء بالحرص على مواكبة الحضارة ، أو غنى الثنائية ، أو الانقياد لضرورات الموقع الجغرافي ، أو ما الى ذلك مما هو أقرب الى أن يكون تعلةً منه الى أن يكون حجة .

* * *

إذا تجاوزنا هذا النوع الأول من الثغرات الى النوع الثاني فإننا نتجاوز مغرب الوطن العربي الى مشرقه .

وما من شك في ان العربية في المشرق تبدو أكثر وضوحاً ، وأوسع انتشاراً ، وأعمق حضوراً . ولست في حاجة الى شيء من حديث عن العبء الكبير الذي تنهض به القاهرة وبغداد ودمشق ، ولكننا في حاجة الى التأكيد على هذا الحرص الرائع في ليبيا على أن يشمل التعريب كل شيء وعلى أن يكون أصيلاً عميقاً . . ولن أنسى النشوة التي ملأت كياني كله حين ركبت خطاً من خطوط شركة الطيران الليبي فقد راعني أني لم أجد كلمة واحدة غير عربية ، وقرأت نشرة الشركة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن حركتها ومواعيـــدها وشروطها فاذا لغة عربية صافية تشغل كل حيز ، وتفي بكل حاجة ، وتقابل كل رمز .

غير ان هـذا الذي في المشرق ، لايحملنا على القناعة ولا يحجب عنا هذه الثغرات التي تتلامح بوضوح على طريق الحركة اللغوية .

ولن أتحدث هنا عن غياب المصطلحات ولا عن حركة التعليم العالي ولكني ، في حدود الحياة الثقافية ، أحب أن ألاحظ أن هناك خطراً من نوع جديد يستتر في أثواب من «التيسير» و « والتبسيط » ومراعاة الجماهير ، ويوشك أن ينال من سلامة الحركة اللغوية .. إنـــه خطر لايواجه بخصومة ولكنه الخطر الذي يأتيك في مسوح الصديق .

سأتجاوز الوقوف عند بعض الدعوات السافرة كهذه الدعوة في لبنان التي تريدفن الحرف العربي ، لأتمهل عندالدعوات الأخر التي تبدو مغلفةبالنوايا الحسنة .

ان هذه الدعوات تتبدّى في مثل الغاء الإعراب ، وفي مثل الدعوة الى اللغة الثالثة بين الفصحى والعامية ،وفي مثل اقحام العامية مفردات وتراكيب .

وقـــد وصلت هذه الدعوات الى حد أنها سخرت لها أقوى وسائل الإعلام وداخلت أذهان أكبر عدد من الجمهور ، فإذا الإذاعة المسموعة والاذاعة المرئية والمسرح والصحافة بعض وسائلها التي تنفد منها وتنتشر عن طريقها .

وقد كان الأمر في بدايته كما تكون الافكار كلها : شرراً متقطعاً . ولكنه مالبث أن أخذ يتكاثف ويتجمع حتى أوشك أن يكون هذا الخطر المنذر .

وتفصيل ذلك أننا في المراحل التعليمية الثلاث : المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية نرعى تعلم العربية ونتعهدها ونسهر عليها ونجهد في أن نطابق بينها وبين الألسنة .

ولكن جهود وزارات التربية كلها وملايين المعلمين والمدرسين والأساتذة تنقض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقضاً في المؤسسات الأخرى مثل الصحافة حيناً والإذاعات المرئية المسموعة حيناً آخر ، وهي هذه الوسائل القوية الملحة الدؤوب التي تهاجمك ليل نهار حتى تسكن اذنيك وحتى تحملك على الإنصات إليها ان كان هناك سبيل الى أن يكون الإنصات أمراً تدفع اليه وتحمل عليه .

هذه الوسائل تخلت من كثير من ضوابط العربية . انها تناقض عمل التعليم وتنقضه . ويبدو دائما هذا المشهد المبكي : وزارات التربية تملأ القربة من فوق ومؤسسات أخرى تحدث في هذه القربة ماستطاعت من ثقوب . أولئك يبنون السفينة أو يحاولون بناءها وهؤلاء يخرقون أطرافاً منها دون أن يجدوا من يأخذ على أيديهم .. ويعود الجهد العربي الضائع ــ على نحو ما يبدو في كثير من الساحات الأخرى ــ حقيقية ماثلة ، ويوشك أن ينتهي المرء الى أن كثيراً مما تقوله الصحافة و كثيراً جداً مما تذيعه الإذاعة و كثرة فاحشة مما يقوله المسرح انما هو نقيض للذي تقيمه المدرسة .

ترى هل أضحت اللغة ، وهي محور الفكر العربي ، من هذه الاشياء الهينة التي نتصرف بها على هوانا ؟ هل هي رغبات طارئة ، ومزاج متقلب ، وملك شخصي ؟

* * *

آية هذا كله أننا نواجه على الخريطة اللغوية جملة من الثغور التي تتهدد الكيان اللغوي . بعض هذه الثغور على تخوم الحياة اللغوية ، وبعضها ثغرات في داخل الكيان اللغوي تحاول أن تفتته وأن توهيه .

والحياة اللغوية ، شأن كل ألوان الحيوات الأخرى ، لا تستطيع أن تنام وهي تواجه الخطر .. انه لا بد لها من دراسة مكامن الخطر هـــذه ومن محاولة تطويقها مخافة عدواها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن الدعوة إلى الثنائية اللغوية – وهي شيء آخر غير الانفتاح على اللغات الأجنبية وممارستها – هي أخطر هذه الدعوات من خارج . وإن الإلحاح على ترداد عبارات « التيسير » و « التبسيط » في غير ما ضرورة أو حاجة ، يخلق عند الإنسان العربي هذا الجو السلبي نحو لغته ، ويكوّن مجموعة من الضربات في الجدار اللغوي تريد توهينه . ولا بد في تخطيط لغوي سليم – ينطلق من الإيمان بان اللغة و كتابها وتراثها معتصم أمين ودافع مكين وقوة مستمرة متجددة مبدعة – من دراسة هذه الثغور على الخريطة العربية والإعداد لها .

إغناء العربية ومسايرتها للتطور العلمي ، ذلك هدف جليل . ولكن يواكبه ويتقدم عليه حماية العربية . إن العربية – على النصوص الدستورية – توشك أن تكون من غير حماية بل توشك أن تكون هدفاً مباحاً . ونحن في هذا لا ننظر إلى اليوم وإنما نحاول أن نجتلي المستقبل . إن الثغرات الصغيرة في وضع سليم لا تبعث على كثير من خوف ، ولكنها في وضع مهدد لا حماية له من سلطات الدولة ومؤيدات القانون – في وقت أصبح المجتمع هو كل شيء ، هو الكيان ، وأصبح الفرد شيئاً تالياً له ليس له كيان مستقل – في مثل هذا الوضع يكون لهذه الضربات إيجاعها اليوم وأثرها غداً .

شكري فيصل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net